

— جدٌ مليح . ثم لا ذت
بالصمت وأخذت تقشر البطاطس
وتديرها في حذق ومهارة ، بين
أصابع يابسة عقداء ممروقة ،
تشبه أرجل السراطين ، وفي يدها
اليمني سكين عتيقة مثقلة لانكاد
تقطع الجبن

السكينة

للقصصتي الفرنسي جدي مؤبسان
يقتكم الأدب كجمال الحيتري

وحين فرغت من البطاطس ،
وأفحت لائحة صفراء ، أنفت بها في قدر مملوء ماء ،
فاذا دجيجات وأفراخ تسمى إليها ناقة مقوفة ، ثم
تختلس ما تبقى في حجرتها من قشور البطاطس ،
وتتراكض في خبث عنها وفي منقار كل منها ما غنمت
من قشور

كان المعلم « شيكو » يرقب هذا المنظر في سأم
وضيق وفي نفسه أسمر ، وعلى لسانه كلام يجتهد في
انزاعه ، وأخيراً وفق فقال :

— ألا خبريني أيتها الأم « ما كاوار »

— وما عساي مخبرتك به ؟

— ألا زلت ترفضين بيبي مزرعتك ؟

— هذا أمر قد فرغت منه أيها المعلم « شيكو »

فلم إقلاق به مطلع كل صباح ومهبط كل ليل ؟

— ولكنني ياسيدي وجدت حلاً للمسألة
إن رضيت به خرج كلانا راضياً بصفقة غير أسف
ولا مغبون

— وما هو هذا الحل ؟

تبيميني أرضك ثم تحتفظين بحق استثمارها
ما بقيت في قيد الأحياء ، أفلا يرضيك هذا أيضاً ؟
فشغلت الميجوز عن تقشير البطاطس ، وراحت

ترى الرجل بنظر حاد عنيف تحت جفنين خلفين
أجمدين . ثم قال الرجل مفسراً :

— إنك إن رضيت بهذه الصفقة تتسلى في
منتهى كل شهر مائة وخمسين فرنكاً أحملها إليك في

وقفت العربة ذات الحصان الواحد أمام مزرعة
الأم « ما كاوار » تحمل المعلم « شيكو » خمار
« دي به فيل » وهو رجل في العقد الرابع خشن
المعارف هائل الحلقة أحمر الوجه بطين سمين ، في وجهه
سيا الخبث والمكر

هبط الرجل سلم العربة ، ثم ربط حصانها
بمخشبة ممتزنة ومشي إلى ساحة القدار

كانت الأم « ما كاوار » تمتلك أرضاً تبجور
مزرعته ، طالما تشوقت نفسه إلى ابتياعها منها ،
وضمها إلى أرضه لولا أن كان يصده عن هذه الرغبة
تعصب من الميجوز عنيد وتصلب شديد . وكانت تقول :
— إني ولدت في هذه الأرض ، وستجني
تربتها ...

ففي هذا الصباح أتى الميجوز ، وهي درديس
في الثانية والسبعين من عمرها ، أمام باب منزلها
ممنية بتقشير « البطاطس » كانت منكشة الجلد ،
جافة اللحم ، منضوخة الوجه . وبرغم ذلك كانت
دائبة على عملها وكأنها في ربيع العمر

تقدم منها المعلم « شيكو » وربت على كتفها في
دعابة ثم قال :

— وصحتك أيتها الأم ، هل هي جيدة وأبد أجيدة ؟

— أحمد الله ، وأنت أيها المعلم ؟

— بخير ، ولولا قليل من الألم لكنت هائلاً

راضياً

أن ذكرى المائة والخمسين فرنكا الطنانة البراقة، التي توشك أن تندحرج على حجرها مطلع كل شهر ، كانت تلهب رغبته الخامدة وتذكي أطماعها الهامدة وأرادت أن تضع لتردها حداً ، فمضت إلى المسجل الشرعي تنفض له جملة حالها وتستنصحه في أمرها . فأشار إليها بالاطمئنان ونصح لها بالرضى بحل العلم « شيكو » ، ولكنه اشترط عليها لذلك، أن يضاعف لها الراتب فيجمله ثلثمائة بدلاً من مئة وخمسين فرنكا لأن مزرعتها تساوى في أقل ثمن ١٦٠ ألف فرنك . ثم قال لها في أضاف حديثه :

— لنن عمرت خمسة عشر عاماً ، فلن ترضى صاحبك أكثر من أربعين ألف فرنك ... فاستغاثت جسم العجوز هزة من الطمع حين ذكرت الثلثمائة فرنكا التي سوف تحظى بها رأس كل شهر . وليسكنها على ذلك ظلت حذرة مبلبة الخاطر ، تنوشها المواجس ، وتتوزعها الوسوس ؛ فهي تتوقع حيناً مفاجأة مفاجئة وآناً مكيدة مستورة ، لا تبصرها ولكنها تحسها . ولبثت حتى المساء تناقش المسألة بكل حل ، وتواجه المقترح من كل جهة . ثم ، ثم لم تستقر على عزم ولم تتوجه جهة من الرأي .

وجاءها العلم شيكو يستطلع رأيها ويستعلم غرضها الأخير فأبتهت إليه قرارها النهائي ، بلزوم رفع مرتبتها الشهري ، وحين رأت هزة الاخفاق تركب أوصاله ، وفار الغيظ تحتدم في عينيه ، وبوادر الرفض تتوافد على لسانه ، أظهرته على قاعة للسنيين التي يمكن أن تعيشها بعد هذه الصفقة فقالت :

— إني من الوهن ورقة العظم واشتعال الشيب بحيث لا أستطيع الانتقال إلى سريري إلا مستندة إلى الأذرع ، أو محمولة على الظهور ومهما يمتدني خيط الهرم ، فانه كخيط المنكبوت

حريص . أنتدبرين قولي ؟ أنفعهمين حديثي ؟ مائة وخمسون فرنكاً ثم لا تبدل بك حال ، ولا تنفيري حياة ، فستظلين في حقلك آمنة السرب رافعة العيش لا يدبنيك أحد ولا نديين لأحد ، ولا تملين أصراً ، ولا تنصبين نفسك لعمل . إلا أن يكون استلام مائة وخمسين فرنكاً ، مطلع كل شهر ، عملاً شاقاً يكبد وينصب . قال هذا وطفق ينظر إليها فرحاً مستبشراً وفي وجهه الطيبة والصلاح والسكنة ... والمعجوز تلحظه حذرة متيقظة . وقد كبر في وعيها أنه خادع لها وناصب لاصطياد مزرعتها أحبولة من ألفاظ منمقة مزورة . على أنها سألته في خبث :

إنك لتؤكد لي أن المزرعة ستظل في حوزتي فهل بلغ من أرمحيتك أن تبرع لاصرة عجوز بهذا الراتب الضخم دون فائدة تعود عليك ؟ قال العلم شيكو وقد أدرك ما تنطوى عليه غمزة المعجوز لا أفتسل عليك يا سيدتي في شأن الأرض ، فلسوف تغلين خيراتها وتنفعين بشمراتها ما مد الله في حياتك العزيزة . غير أنني أرجوك أن تكتبي لي حقاً سريعاً ، يخواني حق امتلاكها بعد عمرك الطويل إن شاء الله . ولبثت المرأة وهي تصغي لقول العلم مأخوذة دهشة حائرة لا تملك لرأيها إبراماً ولا نقضاً ، ولا لوقفها من الرجل إجابة ولا رفضاً ، وأخيراً قالت :

إنه لا يسمني رفض اقتراحك ، فلو أنظراتني أسبوعاً آخر أتبصر أمري وأروى رأيي . فأطاع العلم « شيكو » ثم غادر الأم فرحاً غوراً ، كأنه الملك الجبار ، استولى على بلد عدوه بالحديد والنار ... أما الأم « ماكلوار » فقد أمضت أيامها ساهمة حالة ، لا يستقر جنبها على مضجع ، ولا يزور جنبها سنة من نوم . ثم استشرت بها حميا للتردد وعصفت نار الحيرة فكادت توطن نفسها على الرفض التام ، لولا

وجهة الحيلة للخلاص من طلعة المعجوز المشؤومة ،
وأخيراً ظفر بما يرجو فندا عليها يوماً بطفر من
البشر والسعادة ، وبصق بيديه من الفرح والمرح ،
وبعد أن ناقها برهة حديث الجمالة والود قال :

— ألا أقول لي أيتها الأم ما كوار فيم امتناعك
عن زيارة منزلي حين مرورك على حانة «إيدى فيل»؟
إن الحديث فيه ليلك ويمتع ، وأنا هناك وبالأسف
مقطوع الصلة من الصديق ، منبت الوشيجة من
القريب ، لا يؤنس وحشتي زائر ، ولا يمر على عابر.
فزوربني إن تكرمتم وكلني ما طاب لك فقلت مرزتك
مالاً ولا مكامك دفع طعام أو شراب . زوربني ففي
زبارتك تشيع البهجة في قلبي وينتشر السرور
في داري

وفي الغد لم تكلفه الأم إعادة الاستزارة ،
فراحت إليه في عمربتها ، والشمس لم تفادر خدرها
الوردي ، وحين بلغت الحانة ربطت حصان العربية
في الاصطبل ، ثم دخلت عليه طالبة الغداء الموعود
لم يكذب يصدق عينيه المعلم شيكو ، وراح ينشط
في خدمتها ويجهد في مرضاتها ، كأنه أمام سيدة
نبيلة لا قروية بخيلة ، ثم أخذ يفتن في تقديم فاخر
الأطعمة والآكال وغريص اللحم ، من الطير المهر ،
والدجاج المحمر ، ولحم الخنزير المشوى ، وأصناف من
الحضار والفاكهة والتوابل ، ولكنها لم تصب من
هذه الآكال الدسمة إلا ما يوافق معدتها المعجوز
التي اعتادت الاكتفاء بحساء اللحم الرقيق ،
أو قطع الخبز المغموسة بالزبدة ، وألح الرجل وعزم
عليها . ولكنها لم تأكل مضافة ولم تشرب جرعة
حتى القهوة امتنعت عن تناولها . وأخيراً قال لها وهو
يتناولها قدحاً من « الكونياك » :

— أو ترفضين أيضاً هذا القمح ؟

— أما هذا فأقبله دون أن أقول لا . فرجت

وشيك الانبتات سربيع الانقطاع . وهل بمد
الثلاثة والسبعين عاماً التي توقر كاهلي حياة ترجى
أو عيش ينظر ؟ وقاطمها المعلم مضطجاً فقال :

— إنها لمحاولة فاشلة منك ياسيدتي أن تصطلمي
المعجز وتنظاهري بانقطاع المنة . ثقي أن منجل الموت
لا يعرف سبيله إلى شجرتك قبل أربعين سنة في
أقل تقدير ، وإنى أراهن على أنك أنت التي ستولين
دقني ، فما هذا الخوف والفزع من الموت ؟

وتصرم عمر النهار في الجدل والنقاش والأخذ
والرد ، وجهد المعلم « شيكو » الجهد كله ليقنع المعجوز
بالنزول عن طلبها الجائر المرهق فما عاد بطائل . وحين
لم يجد مندوحة من إجابتها رضى مكرهاً بدفع
الثلاثمائة قرنك ... وغبرت سنين ثلاث وصاحبنا
المعجوز كالسروة المتيقة لا يزيد لها المزق إلا صلابة
وجلداً على الأيام ، حتى بئس المعلم من موتها وخيل
إليه أنه مرغم على دفع صربتها الضخم نصف قرن
أو يزيد ، وأن صفقته كانت هي الحامسة المبنونة ،
وأنه لا بد موف على الخراب صائر إلى الافلاس إن
ظلت معاودة للصدافة والود بين المعجوز وعزرائيل
متينة العرى

كان يتردد على المرأة الفينة بعد الفينة بحجة
السؤال عن نضوج الحنطة ، أو الاستفسار عن موعد
الحصاد ، فكانت تستقبله في خبت ، وفي نفسها
الشبابة والنشفي وفي معارف وجهها صورة الافتخار
والزهو للدور المضحك المسلي الذي لميته على مسرح
بلايته وغفاته . فكان يرد سريماً إلى عمرته ويجمجم :
— وإذن فليس في نية هذه البهيمة أن تموت ؟
لم يكن يعرف لشكله حلا ولا لعقدة أزمته فكاً كا .

فكانت تمر به ساعات يود فيها لو أهوى على عنق
المعجوز تخنقه ، وروحها فأزهقه ، مما في نفسه منها
من الغيظ والحنق والمؤجدة ، وظل زمناً يلتمس

أركان الحانة بصوت المعلم يقول :

— « روزالى » أيتها العزيزة . احلى لنا كل
فاخر ممتق من الكونياك . وظهرت الخادمة تضم
إلى صدرها زجاجة طويلة ممشوقة ازدانت فوهتها
بطابع الكونياك الفاخر . فتناولها المعلم شيكو
وأفرغ منها قدحين ، ثم عاوى المعجوز أحدهما . قائلا :
— إنه لسكنياك لذيذ شهير ، أفلا تتذرقينه
ياسيديتي ؟

فتناولته الأم « ماكلوار » شاكرة وطفقت
تنحسأه جرعات صغيرات ، كي تطيل مدة نشوتها
وانبساطها . وما إن فرغت من القدح الأول حتى
أفرغ لها المعلم قدحاً ثانياً . فأعرضت عنه أولاً
ثم أكرهها المضيف بالقول اللطيف والنجم الطريف
والنكتة المستلحة . وكان عازماً على إردافه بثالث
ورابع لولا أن عائلته برفضها وامتناعها .
— ولكن هذا ياسيديتي ليس خيراً إن هو

إلا حليب مصفى ، أبتلع عشرة أقداح منه دون أن
يتمتعنى السكر أو تذهب بوقارى النشوة ، لا يكاد
يستقر فى الجوف كالسكر المذاب حتى يتبخر فى
الجسم دون أن يجد طريقه إلى الرأس . وليس
كمثله شيء لصحة الجسم وابتغاء النشاط . فدعا
ذلك المعجوز إلى أن اجترعت نصف الكأس الثالثة ،
ولم تجرؤ على استنفادها لأنها شمعت بفعل السكر
بأطرافها ، وتلماب الخمر بأعطافها . فأهرعت إلى
عربتها ومضت ... وغدا عليها صاحبنا فى عربته
المعروفة ذات الحصان الواحد وحين استقر بهما
المجلس أخرج من جوف العربة برميلاً صغيراً ، فيه
خمر الأمس ، ثم جلسا يعبدان سيرة البارحة ، ولما
استقر فى جوف كل منهما ثلاثة أقداح ، غادرها
المعلم قائلا :

— ما أرانى بحاجة لأقول لك إن الخمر التى

أبقيتها لك تكفيك مدة . فاذا فرغت منها فعندى لك
اللذيذ الممتق لا أبخل عليك به ولا أذن . وكما
أحدث فى الطلب ألح على السرور وطبت نفساً ...
وآب إليها بعد أيام أربعة ، فألفاها على الباب
معنية بتقطيع الخبز الذى تعده للحساء ، فاقترب
منها أنفاً لأنف وبدرها بتحية الصباح ، فنفخته
منها رائحة « الكحول » وملأت خياشيمه . هنالك
أضاء وجهه بنور البشر والفوز ثم قال :

— ألا تقدمين لى قدحاً من الكونياك ... ؟
وجلس الاثنان يعاقران الخمر ويشرب كل منهما
نخب صاحبه ... ولم يطل الأسر بالأم « ماكلوار »
حتى شاع عنها أنها تماقر الخمرة متخيلة لنفسها .
وفى الحق كان الجيران يلقونها إما مستلقية أمام
مطبخها وساحة دارها لا تنى ، أو منطرحة فى الطرق
والشوارع لا تحس ، فيحملونها إلى بيتها جثة
لا حراك فيها ولا وعى ...

ولم يمد المعلم شيكو يتردد إلى بيتها فكان يقول
للجيرة راثياً :

— إنه لما يبتعث الأسى أن تدمن هذه المعجوز
الشراب وهى فى أزدل العمر ، مع أن الخمر تمجّل
خطواتها إلى القبر !

وفى الحق لقد وجدها أهل القرية ميتة على
بساط الثلج صباح عيد الميلاد عقيب سكرة انكازية
أبليت فيها البلاء الحسن ...
وورث المعلم « شيكو » أرضها كما خوله الصك
فكان يقول :

— لو لم تتلف هذه المعجوز البلهاء صحتها بسموم
الخمر لماشت عشر سنين آخر !

كمال الحربى

(حلب)